﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ(١) عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

هكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛ لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر في سماء ذات أبراج(٢) ، وأرض ذات فجَاج(٣) ، وبحار تَزْخر(٤) ، ورياح تَصْفِر ، كل ذلك يدل على وجود الخَالق سبحانه .

لكن أتَركَ الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

---

(١) الرجس : الخبال والضلال . [ابن كثير ٢/ ٤٣٣] . قال الزجاج : الرجس في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسمَّاها رجساً . وللرجس معان أخرى ، فهو العذاب كالرِّجز ، وهو المأثم وهو الشك في مثل قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهي منازل الأفلاك في السماء أو هي الكواكب . وقيل : هي النجوم . [انظر لسان العرب : مادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] . وقال تعالى في صيغة المفرد : ﴿ .. وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] .

(٤) بحار تزخر : أي : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر القوم : جاشوا لنفير أو حرب . [لسان العرب ، مادة : زخر] وهذه الجمل من خطبة خطبها قُس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية ، كان أولها : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت » انظر : البيان والتبيين - للجاحظ (١/ ٣٠٨) .

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكّروهم بالآيات الموجودة فى الكون ، ولينتبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ ..لَمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام]

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكأن الحق سبحانه يُبيِّن لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن مُلكى إلا بإرادتى ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى.

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبية.

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً عَلمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه.

وساعةَ يأتى الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدِّل لى حياتى ، فلا بد أن أرْهِفَ[1] له السمع.

وساعة يُقْبِل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمان.

إن العبد منَّا إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدْخلوه. وهو يقول ذلك ؛

---

(١) إرهاف السمع : الإنصات الشديد. والرهافة فى اللغة : الرقة واللطف. [اللسان : مادة رهف].

لأن الله سبحانه أطلعه على ما فى قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاق .

أما إذا دقَّ بابه عبد آخر ، فتجده يأمر معاونيه أنْ يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما فى قلبه من محبة ورغبة فى صدْق اللقاء والمودة .

إذا كان هذا يحدث بين العباد ، وهم كلهم أغيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى ؟

والله سبحانه هو القائل فى حديث قدسى : «من ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى ملأ خير منه» .

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله .

إذن : أقْبلْ على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إنْ ذكرت الله فى نفسك ، فالَله يذكرك فى نفسه ، وإن ذكرته فى ملأ ذكرك فى ملأ خير منه ، فالملأ الذى ستذكره فيه ملأ خَطَّاءٌ ، والله سبحانه سيذكرك فى ملأ طاهر .

ويقول الحق سبحانه فى ذات الحديث القدسى [1] : «إنْ تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً» .

والذراع أطول من الشِّبر .

ويقول : «وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» .

فالمشى قد يُتعب العبد ، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إنْ يعلمْ أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى فى

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ، وتمامه : «أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله ، لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، من تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومَنْ تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول» .

شيء ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبِّب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق فى كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق، وهو الحق القائل :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⟨١٧⟩ ﴾ [محمد]

ونلحظ أن الحق سبحانه يؤكد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ فى الأرض جميعاً ؛ ليبيِّن لنا أنه حتى إبليس الذى دخل فى جدال مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس.

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ ليُحْكِمَ الأمرَ حول كل خَلْقه ومخلوقاته ، فلا يشذ منهم أحد.

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ .. أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⟨٩٩⟩ ﴾ [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. ⟨٢٥٦⟩ ﴾ [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هى المطلوبات الظاهرة فقط التى تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ أنك أكرهت قالباً أتستطيع أن تُكرِه قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب [1].

وهكذا لا يصلح الإكراه فى قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألاّ يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم. والقلوب لها الوجدان والاختيار والحب والكره ، والقوالب مادة تسير حسب الإدراك الذى انفعل بوجدان ، ووجدان وضع أمامه البدائل ليختار ، ويُسمَّى (النزوع).

لا يصلّى فينهره صديقه ، فيردّ : لا إكراه فى الدين. وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطىء ؛ لأن الإكراه فى الدين إنما يكون ممنوعاً فى القضية العقدية الأولى.

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإنْ أخلّ بحكمٍ من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته.

ولا إكراه فى الدين ، فيما يخصُّ القضية العقدية الأولى ، وأنت حُرٌّ فى أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإنْ دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرْتَ محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرها ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرقت ؛ تُقطع يدك ، وإنْ زنيت تُرجَم أو تُجلد [1] ، وإنْ شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلتَ قواعد الإسلام وشريعته.

وإنْ رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولن إن الإسلام يُسرق ، ولكن إن رآه يُعاقَب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم.

إذن : فـ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..(٢٥٦)﴾ [البقرة]

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إنْ خرجتَ على الحدود.

والرسول ﷺ يقول : «مَثَلُ القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا [2] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

---

(١) للزنا فى شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم ، أو الجلد. أما الرجم فيعاقب به الزانى المحصن الذى قد أحصن بالزواج. أما الجلد مائة فهو لغير المتزوج أو لم يسبق له الزواج ، فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور].

(٢) استهموا : اقترعوا.

فكان الذين فى أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خُرْقاً ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً»[1].

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب ممن دخل الدين دون إكراه ، وإنْ خدش حكماً من الأحكام يُعاقب.

وهناك ما هو أشدُّ من ذلك ، وهو حكم مَنْ ارتد عن الإسلام ، وهو القتل[2].

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية. فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إنْ آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتَل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان.

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين. فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقِّن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلمْ أنك إنْ دخلتَ على الدين ثم تَخلَّيْتَ عنه فسوف تُقْتَل ، وفى هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيمانى ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. ويَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال: حسن صحيح.

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه». أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٢١٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣) وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥).
- وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث آخر عن ابن مسعود: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزانى، والمفارق لدينه التارك للجماعة» أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هوىً ؛ لا بُدَّ أن ينتهى العقل إلى الإيمان.

ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذى يشفى الغُلَّة [1] ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظلون على حالهم.

وبعض القمم الفكرية فى العالم التى اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام فى زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادىء الإسلام ، وفرَّقوا بين مبادىء الدين ، وبين المنتمين للدين ، وهذا إنصاف فى البحث العقلى ؛ لأن الدين حين يُجرِّم عملاً ، فليس فى ذلك التجريم إذْنٌ من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا .. (٣٨) ﴾ [المائدة]

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا [2] ،

(١) الغلة فى اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفته ودرسه كالظمآن يطلب الماء .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا (٣٢) ﴾ [الإسراء]. ويقول سبحانه : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين (٢) الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين (٣) والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون (٤) إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم (٥) ﴾ [النور].

وغيـر ذلك من الجرائم التى جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكَّر العقاب الذى أوقعه الإسلام على السارق ، وإنْ رأيتَ مسلماً يزنى ، فَتذكَّر العقوبة التى حددها الحق سبحانه للزانى.

وهكذا الحال فى جميع الجرائم.

وكبار المفكرين العالميين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادىء الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادىء الدين الحنيف.

وها هو ذا «چينو» المفكر الفرنسي يقول : « الحمد لله الذى هدانى للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنتُ قد عرفتُ المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة فى النفس تجعلنى أتردد فى الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام».

إذن : فإعمال العقل الراقى لا بد أن يؤدى إلى الإسلام لأنه فطرة الله ،والإسلام يُنمِّيها ، ويرتقى بها ، والعقل هو مَنَاطُ التكليف.

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعْملون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفى الرجس ؛ لأنهم سيُقبلون على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به.

وإذا سألنى سائل : ما هو العقل ؟ وما هو مَنَاطُ التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقَال البعير ، وهو ما يُشَدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحَين يريد صاحبه أن يُنهضه فهو يفكُّ العقال.

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (غُتْرة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العقال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطيِّره.

إذن : فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى فى تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل.

فحين يفكر الإنسان فى تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك؟

إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أراده الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التى فيها هَوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبَّتها [1] متعبة.

ويخطىء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذى يوضِّح لك آفاق المسئولية فى كل سلوك.

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلِّف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبيعى ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل.

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُسْتوفٍ للمَلَكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إنجاب مثيل له.

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طَعْمها مقبولاً مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التى فيها قادرة على

---

(١) غبّ الأمر مَغَبَّتُهُ : عاقبته وآخره. [لسان العرب : مادة (غ ب ب)].

أن تنبت منها شجرة إن زرعناها فى الأرض.

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لُبَّها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذى صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نُضْج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللبَّ وتزرعه ينتج لك بطيخاً.

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يَزِنَ السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكرَه بقوة تقهره على أن يفعل ما لا يعقله.

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدربه على الطاعة.

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع[1]»[2].

وهنا نجد أن الذى يأمر هو الأب وليس الله ، والذى يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرِهه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقولَ له : إن لم تشرب الخمر أطلقتُ عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف.

ورسول الله ﷺ يقول فى الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتى : الخطأ ، والنسيان ، وما استُكرِهوا عليه»[3].

---

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت فُرُشاً أو غيرها.
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠٤٥) والدار قطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجه منقطع.

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل فى كل شىء ، ففى الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضِّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطى الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فَرُبَّ أكْلة منعتْ أكلات ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا نجد العقل هو الذى يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذى يدفع إلى التأنى والإجادة فى العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمرىء به الخطأ والخطايا .

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى فى مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ[1] ﴿١٠١﴾ ﴾

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم المُلْك الذى تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذى يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

(١) قل انظروا ماذا فى السموات والأرض : أمر للكفار بالنظر والاعتبار فى المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال ، والآيات هنا بمعنى : الأدلة والبراهين على ألوهية الله ووحدانيته ، والآية تفيد عموم النظر فى ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر : الرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول ﷺ . عن قوم يؤمنون : أى : عمَّن سبق له فى علم الله سبحانه أنه لا يؤمن . [تفسير القرطبى : ٤/ ٣٣١٤] - بتصرف .

إن لهذا العالم خالقاً إلهاً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت فى داخلك أمانتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صُنْعه فى السماء والكواكب ، وأعجبْتَ بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب.

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئى ، وتُبهر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى ، ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لنفاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[1] (٤٠)﴾ [يس]

ونحن فى حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نكرِّم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمِّم التلغراف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه.

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وهى شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشموس الأخرى فى المجرَّات الأولى ، وكل مجرَّة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قد أقسم

(١) لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر : قال الثورى : أى : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل . ولا الليل سابق النهار : قال مجاهد : يطلبان حثيثين يُسلخ أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخٍ ؛ لأنهما مسخران دائبان والفلك : جمع أفلاك ، وهى المدارات فى السماء التى تدور فيها النجوم والكواكب ؛ فكأنها تسبح فى الفضاء . [تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٧٣] بتصرف . « وهذا دليل على تقدير العزيز العليم » .

بالشمس [١]، وقال عن كوكب الشِّعْرى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ [٢] (٤٩) ﴾ [النجم]

لأن كوكب الشعرى أكبر من الشمس.

وحين تتأمل السموات والأرض تجد في الأرض جبالاً شامخة ، وتمر عليها فتُدْهش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد في داخلها نفائس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هشٍّ ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التي شقَّقتها حرارة الشمس.

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النيل من غرْيَن [٣] في أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالي ، وكانت مياه النيل في أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغرْين ، وفي مثل هذا الغرين يوجد الخصْب الذي نأخذ منه الأقوات [٤].

ولو أن الجبال كلها كانت هشَّة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

---

(١) قال الحق سبحانه في سورة الشمس : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) ﴾ [الشمس] . وقد ذكر الله عز وجل الشمس في كتابه العزيز (٣٢) مرة ، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا النجم.

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعرى) إنه هو النجم الوقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء ، وكانت طائفة من العرب يعبدونه في الجاهلية . [تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٥٩].

(٣) الغرين : ما بقى في أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين ، وقيل : هو الطين الذي يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً ، وكذلك (الغريل) . قال الأصمعي : الغرين أن يجيء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب : مادة (غ ر ن)].

(٤) أقوات : جمع قوت ، وهو الرزق ، ويطلق لفظ قوت على كل ما يُقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى.

متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر فى كل عام مرة ؛ ليحمل الخصب إلى الأرض.

ومَنْ يتأمل هندسة التكوين فى الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت.

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات لحرث الأرض ، أو أى آلات أخرى تساعد فى تجميل الحياة ، وتجد الحديد مخزوناً فى الجبال.

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ، أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور[1] فى الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ، أو وسيلة للتَّرف فوق الاقتيات.

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخصْب من الطبقة الهشَّة[2] على سطح الجبال وتبقى المواد الأخرى كثروات للنّاس ، ففى إفريقيا مثلاً توجد مناجم للفحم والماس ، وفى بلاد أخرى تجد عود الطيب ، وهو عبارة عن جذور أشجار.

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية فى الخير مع القطاع المقابل للقطاع الأول.

---

(١) طمر الشيء: خبأه . ومطمور: اسم مفعول من طمر، وطمر: إذا تغيَّب واستخفى، والمراد: خيرات الله المختفية داخل الأرض تنتظر إذن الله تعالى لها بالظهور.

(٢) والشيء الهش الغير متماسك ، وهشم الشيء اليابس هشماً كسره قال تعالى : ﴿ .. كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر] أى : كالحطب والخشب المحطم فى يد المحتظر . أى : صانع الحظيرة [القاموس القويم صـ ٣٠٣ باختصار] .

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت لو حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصب الجبال من يوم أن خلق الله - عز وجل - النيل فى أرض وادى النيل فى إفَريقيا ، وحسبت ما أعطاه النفط (البترول) فى صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تَمَّ حديثاً .

وكل قُوت محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن للفحم ، وزمنٌ للبترول ، كل ذلك بنظام هندسى أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿يَعْقِلُونَ﴾ فى مجال النظر فى السموات وفى الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادى يكون بين جبلين ، وتجد رأس الوادى فى أسفله ، ورأس الجبل فى قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمرُّ برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع الوادى الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملأ مساحة الوادى المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقتيات .

ومثال ذلك تجده فى الغرْيَن القادم من منابع النيل ؛ ليأتى إلى وادى النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شىء فى الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب .

والذى يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننتظر إلى أن تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر فى استصلاح أراضٍ جديدة ، وكان يجب أن نفعل ذلك من قبل .

وكلما نزل المطر على الجبال فهى تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ، يكتشفها الإنسان ويُعْمِل عقله فى استخدامها.

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبَّق المؤمن حُكْماً تكليفياً مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق فى قلبه.

وليُجرِّب أى مسلم هذه التجربة [1] ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً فى ضوء منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يَزِنْ نفسه ويُقيِّمها ليعرف الفارق بين أول الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيكتشف فى هذا الأسبوع أنه يصلى فى مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق فى عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه يصرف ماله فى حلال.

زِنْ نفسك يقينياً فى آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفَّت شفافية رائعة ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله فى أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً.

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أسبغ عليهم تطبيقُ منهج الله الشفافيةَ تسأله زوجته : ماذا نطبخ اليوم ؟ فيقول لها : فَلْنقْض اليوم بما بقى من طعام أمس ، ثم يُفَاجأ بقريب له يزوره من الريف ، وقد جاءه ومعه الخير.

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً معَ الكون كله ، فيصله رزق الله تعالى له من أيِّ مكان.

وتجد الشفافية أيضاً فى أعقد الأمور ، ألم يَقُلْ يعقوب عليه السلام :

﴿إِنِّى لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ..﴿٩٤﴾﴾ [يوسف]

(١) هذه تجربة التريض الإيمانى : فالمسلم الذى تخلى عن المعاصى وتحلى بالطاعات تجلى الله عليه بالفيوضات والنفحات.

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميصَ يوسف ، الذى أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره [1].

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش فى انسجام مع الكون ، ولا توجد مُضَارة بينه وبين الكون.

والمثال الحيّ لذلك هو فرح الكون لمجيء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسبِّح لله سبحانه ، فحين يأتى مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرحَ الكون ، أما مَنْ يَعْصِ الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان.

وقد فرح الكون بمجيء الرسول الذى أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يونس]

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يبصرون ولا يستبصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

---

(١) وذلك أن يوسف عليه السلام بعد ما تعرَّف عليه إخوته قال لهم : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن تتهمونى بفساد الرأى والخرف.

﴿.. وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ [1] عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾ [يونس]

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ [2] قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢)﴾

وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظلون فى طغيانهم يعمهون [3] ، وكأنهم ينتظرون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذِّبين السابقين.

ونحن نعلم أن اليوم [4] هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعده الأسبوع ، وبعد الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسَّم اليوم إلى ساعات ، وقسَّم الساعات إلى دقائق ، وقسَّم الدقائق إلى ثوانٍ.

وكلما تقدمت الأحداث فى الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوَّن من ليل ونهار.

---

(١) النذر : جمع نذير ، وهو الرسول بحججه وآياته وبراهينه.

(٢) خلوا : مضوا وسبقوا. أى : فما ينتظرون بكفرهم إلا مثل ما وقع للأمم التى سبقتهم من العذاب والعقاب. [تفسير الجلالين ص ١٨٨].

(٣) يعمهون : يتحيَّرون ويترددون فى الضلال. قال ابن الأثير : العَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر. [لسان العرب : مادة (ع م هـ)].

(٤) اليوم : فى علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدته أربع وعشرون ساعة وجمعه أيام. وأيام العرب : وقائعهم. وأيام الله : أيام جلت فيها نعمه وعذابه. القاموس القويم ص ٣٧٩.

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلْفتة ، مثلما نقول : «يوم ذى قَرَد» [١] و«يوم حنين» [٢] و«يوم أحُد» .

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذى حدث فيه ، وحين ننظر فى التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث» [٣] و«يوم أوطاس» [٤] وكل يوم يمثل حرباً .

إذن : فاليوم ظرف زمنى ، ولكن قد يُقصَد به الحدث الذى كان فى مثل هذا اليوم .

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش فى أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالى ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شىء مُتوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها .

إذن : فقد يُنسَب اليوم إلى الحدث الذى وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا . . (١٠٢) ﴾ [يونس]

---

(١) ذو قرد : مكان به ماء من أرض نجد ، على مسافة يوم من المدينة ، مما يلى بلاد غطفان . ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية ، أما البخارى فى صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل خيبر بثلاث سنين ، وذكرها بعد الحديبية . انظر : سيرة ابن هشام (٣/ ٢٨١) ودلائل النبوة (٤/ ١٧٨ - ١٩٣) .

(٢) كان فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وقد قال سبحانه فيه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة] .

(٣) يوم بُعَاث : هو يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلى أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، فَقُتلا جميعاً . (سيرة ابن هشام ٢/ ٥٥٥) .

(٤) يوم أوطاس هو نفسه يوم حنين ، وكان فى سنة ثمانٍ للهجرة بعد فتح مكة . وأوطاس : وادٍ فى ديار هوازن ، كانت فيه وقعة حنين .

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً.

والله سبحانه هو القائل:

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتي حدثت لمن سبقهم إلى الكفر.

ونحن نجد في العامية المثل الفطرى الذى ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع من يقول : «لك يوم يا ظالم» أى : أن اليوم الذى ينتقم فيه الله تعالى من الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفترى على خلق الله ؛ لذلك يأتى له الحق سبحانه بحدث ضخم يصيبه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع ما ظلم الناسَ به.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿.. قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢)﴾ [يونس]

---

(١) الحصب : كل ما يلقى فى النار ، لتُسعَّر به . قال تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨)﴾ [الأنبياء] ، وحصبه : قذفه بالحصى ، قال تعالى : ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا .. (١٧)﴾ [الملك] أى : إعصاراً شديداً يقذفكم بالحصى ، فيهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك .

وقوله هنا : ﴿فَانتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢)﴾ فيه بشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سينتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر فى هذا اليوم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ[(١)] (١٠٣)﴾

والحق سبحانه قد أنجى - مِنْ قَبْل - رُسُله ومَنْ آمنوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير.

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجىء الشر بالأحداث التى تعَضُّ الناس لما استشرف الناس إلى الخير.

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذى يصيب المريض هو جندى من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خللاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له.

والألم يوجد فى ساعات اليقظة والوعى ، ولكنه يختفى فى أثناء النوم ، وفى النوم رَدْع ذاتىٌّ للألم.

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يونس]

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير فى الدنيا.

---

(١) أى : أن الله سبحانه قد نجَّى رسله السابقين والذين آمنوا معهم من العذاب ، وسينجى النبى ﷺ وأصحابه والمؤمنين به حين تعذيب الكفار والمشركين . [تفسير الجلالين ص ١٨٨ - بتصرف].

وكلما زاد الناس فى الإلحاد زاد الله تعالى فى المدد ، ففى أىِّ بلد يُفْترى فيها على الإيمان ويُظْلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ؛ تجد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهُّم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم .

وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجى المؤمنين فى قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

والشَّكُّ[1] معناه: وضْعُ أمرين فى كِفَّتين متساويتين .

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها فى كفة ، ويضعوا فى الكفة المقابلة ما يؤمنون به .

ويترك لهم الحكم فى هذا الأمر .

هم - إذن - فى شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعَرْض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أىٍّ كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين .

(١) الشك : نقيض اليقين ، وجمعه : شكوك . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم] . [لسان العرب : مادة (ش ك ك)] .

فـإن كنتم فى شكٍّ من الدين الذى أنزلَ على رسـول الله ﷺ ، وهل ينتصر الرسول ﷺ ومَنْ معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجىء الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ (١٠٤) ﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذى لا مراء [(١)] فيه ، الدليل القوى ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [(٢)] ، و لا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبى على قَدَر الله سبحانه حين يُميته .

وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة فى قوله سبحانه : ﴿ فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

---

(١) المراء ، والمماراة ، والتمارى ، والامتراء : الجدال والشك . قال تعالى : ﴿ .. فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) ﴾ [النجم] . وكذلك المرية (بكسر الميم ، وبضمها) ، قال تعالى : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ .. (٥٥) ﴾ [الحج] [لسان العرب : مادة (م ر ى)] بتصرف .

(٢) يتوفاكم : يميتكم ويقبض أرواحكم . وهو من توفية العدد ، أى : يقبض أرواحكم أجمعين ، فلا ينقص واحد منكم . ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. (٤٢) ﴾ [الزمر] أى : يستوفى مُدد آجالهم فى الدنيا . [اللسان : مادة وفى] .

وكان لا بُدَّ أن يأتى أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة .

والفصل واضح بما يُحدِّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه فى قوله :

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن فى سورة (الكافرون) [1] تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ؛ ليستمر هذا القطع فى كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقَّتاً للعلاقات [2] .

وهذا أول قَطْع للعلاقات فى الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله .

---

(١) نزلت سورة الكافرون فى رهط من قريش قالوا : يا محمد ، هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره . فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ إلى آخر السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك . [أسباب النزول - للواحدى ص ٢٦١] .

(٢) أقوال مُفسِّرى وعلماء سلفنا الصالح تتلاقى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هنا . فقال البعض منهم البخارى وغيره أن المراد بـ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون] فى الماضى و﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ [الكافرون] فى المستقبل . وقال البعض الآخر : إن هذا تأكيد محض . وهناك قول آخر نصره الإمام ابن تيميه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون] نفى الفعل لأنها جملة فعلية ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ [الكافرون] نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفى الوقوع ، ونفى الإمكان الشرعى أيضاً . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③ ﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وفَتْحه ، فَهُرِع الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان[1] .

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هى **القضية الأولى** :

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ . . ١٠٤ ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وأنت إذا نظرتَ إلى الأجناس فى الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذى سخَّر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون فى خدمته .

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان .

ثم يأتى الجنس الأقل مرتبةً من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتى الجماد كأدنى الأجناس مرتبةً ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هى قمة الخيبة .

وتأتى **القضية الثانية** فى قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) كان بين سورتى «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت فى بداية الدعوة ومحاولة قريش إثناء رسول الله ﷺ عن الاستمرار فى دعوته ، ثم حدثت المفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم الغزوات ، إلى أن تَمَّ نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فكانت سورة النصر . وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من امتداد القطع مع معسكر الشرك ؛ ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية الإيمان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

﴿ ..وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ فإذا كان رسول الله ﷺ قد رفض العبادة لمن هُمْ دون الله سبحانه ، فمعنى ذلك أنه لن يعبد سوى الله تعالى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادة تقتضي استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويجتنب نواهيه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا(١) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾

وما دام الخطاب مُوجَّهاً لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب مِنَ الحقِّ سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوي على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتي الأمر هنا بألا يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى، فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ..(١٠٥) ﴾ [يونس]

فلا يلتفت في العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً(٢) ، كأن يعبد الإنسان مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التي يُفتن بها الإنسان .

---

(١) حنيفاً : مائلاً عن كل طرق ومناهج الضلال، إلى طريق الحق وحده.

(٢) الشرك الخفي : هو الرياء وطلب السمعة والصيت . فعن شداد بن أوس قال قال ﷺ : «إن أخوف ما أتخوَّف على أمتي الإشراك بالله . أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً . ولكن أعمالاً لغير الله ، وشهوة خفية» أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٠٥) .